«يرغب في الصراخ.. يرغب في الصمت» لفرحات جلاب:

كثير من الفلسفة ومن السياسة ومن الأدب أيضا

ابراهيم صحراوي*

■ ما أفظع أن يستفيق الانسانُ في يوم من الأيام على حقيقة أنه بلغ الاربعين من عمره. والأفظع من ذلك ألا يكون راضيا عما فات منه مُعتقدا أنه لم يُحقّق ما كان يعمل من أجله، ولم يَجِد الفكرة التي كان يبحث عنها، لم يجد ذاته. فتزداد حيرتُه مجسّدة التناقض بين صورتي واقعه: بلوغه الأربعين، السنّ التي يُفترَضُ أن يكتمل فيها النضجُ العقلي الذي يرسو معه على حقيقة ما، صلبة بما فيه الكفاية تمنحه الأمنَ والطمأنينة، فيحس لحياته قيمةً، من جهة. واستمرار الحيرة والقلق من جهة أخرى، حيرة تُفرزها خيباتُ أمل تحيل كلّ شيء وهما وكلّ واقع زيفاً، قلق وجودي لا تفلح الأسئلةُ الكثيرةُ وإجاباتُها الأكثر في تبديده. تنقضي الأيام ويتقدّمُ العمرُ وتزداد الأسئلةُ وتتعقّد، وتقلّ الإجاباتُ أو لا تُقنع بما فيه الكفاية، وتتعدّد الصدمات بتعدّد الذكريات. يؤدّي كلُّ هذا إلى تعمّق التناقض وتكرّسه: ازدياد الشعور بالغربة عن الواقع مع الرغبة في التشبّث به رغم زيفه وغموضه، فلا يجدُ الإنسانُ مناصا من ركوب فكرة أخرى علّها تُلهيه ردحا من الزمن قد يجدُ فيه ضالّته.

القلق والحيرةُ الوجوديان صنف من صنوف ضغوطات الواقع تنضاف إلى طائفة أخرى من شبيهاتها تجعل الوجودَ والأرضَ والوطنَ، خصوصا في العالم العربي، «أضيقَ من قوقعة نسيها الموجُ بين صخرتين»، فيصبحُ كلّ ما فيه ومن فيه أثقل من الثقلين، سيما أجيال اليوم التي أصبحت لا تقيم وزنا لشيء ولا اعتبارا لأحد (يا إلهي أنت أقدم من جدّي، ص11)، فيكون خيار الهجرة هو الحلّ الأمثل في نظر الكثيرين من فاقدي الأمل وخائبي الرجاء، خصوصا ممن ليست لهم أشياء كثيرة تشدّهم إلى الوطن وتُغريهم بالبقاء فيه.. لكن الهجرة لم تبق كما كانت في السابق ولم تعُدْ تقدّم لمختارها ما يرغبُ فيه، أو تحقّق له ما يحلمُ به حتى وإن كانت هجرةً إلى أقصى الدنيا، إلى أرض الوعد والوطن الحلم.. فالحادي عشر من ايلول (سبتمبر) حوّل الوعدَ إلى قيد والحلمَ إلى كابوس. لذلك ما على المهاجر إن كان يرغب في إنجاح هجرته سوى التنصلُ من هويته والتنكر لأصوله أو طرح المبادئ جانبا على الأقل، عسى ولعلّ..أما إن كان غير مستعدٍّ لهذه التضحية، فليبق حيثُ هو، ولتبتلعه دوامةُ واقعه ولينخرط في العادة أو ليغُصْ في واقعه وليُبحِرْ في أعماقه بحثا عن ذاته، عن أنيس يُلهيه بعض الوقت، وينتشله من الضياع والكبت والانهيار والضغط. كبتٌ وضغطٌ يدفعانه دفعا إلى الرغبة الجامحة في الصراخ، علّه يستريح فيه قليلا من عناء الحرمان والألم والتعب. لكنها رغبة لا تحتملها المؤسّسة l'establishment ولا تسمحُ بها المدينة بضوضائها وجلبتها وانصراف الناس إلى شؤونهم، فلا يبقى إلا البحث عن فضاء آخر يتسع لها، لكن أين يوجد هذا الفضاء؟ أتُراه حيثما نعتقد وجوده؟ خارج المدينة، في الغابة مثلا؟ هل سيُحقّق لنا رغبتنا في الصراخ ويمكّننا من حريتنا لحظات نفعل فيها ما نشتهي فعله؟ ألا يكون هروبُنا من ضغوط المدينة وقيودها وموانعها إلى الغابة وقد أصبح لها أهلها وسادتها الجدد، وقوعا في ضغوط وقيود وموانع أشدّ، فنكون كمن استجار بالنار من الرمضاء؟

هكذا يُفلسف فرحات جلاب الواقع عبر هذه الخطوط العامة للقصص الأولى من مجموعته: «يرغب في الصراخ، يرغب في الصمت». تطرحُ المجموعةُ باحترافية الخطوطَ الكبرى للواقع وتقرأُه مُظهرة عينةً من الضغوطات التي يتعرّض لها الفردُ في كلّ مكان، والآثار المترتبة عن هذه الضغوطات. شيزوفرينيا حادة وانفصام خطير..رفض للواقع، اغتراب روحي ومادي وإحباط ومحاولات هروب فاشلة..إفلاسٌ للقيم وفقدانٌ للمعنى. تشابهُ وضعيات الشخصيات وخطوطها العامة من حيث السن والعلاقة بالمحيط والرؤى والأهداف يكاد يجعل منها حلقات أو فصولا من قصة واحدة. فهي قصص البطل الأوحد، شخصيات رجالية تجاوزت مرحلة الشباب بقليل (بين 35و40 سنة)، تعاني كلّها الأعراضَ السابق ذكرُها، مع أنها تدرك أن «تحت هذه الشمس خير وحق، وطريق يقود إليهما، ص 9» ومع أنه يُفترَضُ فيها، باعتبارها (مسلمة؟) وتجري الأحداث التي تعيشها في فضاء إسلامي ـ نستدلُّ عليه بسهولة رغم أن الكاتب لا يصرّح به ـ امتلاكُها لإجابات عن أسئلة من قبيل من وإلى أين وكيفَ ولماذا؟

تقابلُ هذه القصصَ الأربع (صحوة لسنّ الأربعين، مسافر إلى أمريكا، ملاحظة، يرغب في الصراخ يرغب في الصمت) القصصُ السبعُ الأخرى المتبقية. وفيها نقرأ (لكن برمزية أقل في بعضها) صورا أخرى من الضغوطات ومسبّباتها: القهرُ الطبقي الاجتماعي (السيد المدير) والسياسي البوليسي (الوطن انتم وأبناؤكم) والحضاري المقنّن وما في حكمه كاستقواء شرائح او عصب (كي لا نستعمل كلمة أخرى) على أخرى، دون أن تكون أكثرية في المجتمع بالضرورة، ما يعني أحيانا كثيرة أن هذا الاستقواء ليس ناتجا بالضرورة عن مقومات واستعدادات ذاتية دائما.. (القانون فوق فوق الجميع) وقهرُ الصُدف والاتفاقات الغريبة المفرزة للزعامات المُبركة في كلّ المجالات: السياسة والدين والثقافة والاقتصاد والاجتماع والإعلام.. زعامات سرعان ما تتبنّى لُغةَ الخشب وتنخرط في النفاق السياسوي المتاجر بمصائر البسطاء وأحلامهم وآمالهم ونواياهم الطيبة (الزعيم). وأخيرا قهرُ التجاهل ورفض الانصياع لدعوات الخلاص، خصوصا إذا كانت الدعوة مُعاكسة للتيار العام السائد وصادرة عن فرد مختلف عن الآخرين.. ذلك أنه لا كرامة لنبي في وطنه وبين اهله (انتظار إلى وقت آخر)..

مضامينا إذن، يأخذ الطرحُ أبعادا فلسفية تتمظهر كما رأينا في القلق الوجودي وافتقاد الحرية والثقة في الذات وفي الآخرين لانعدام حوافزها كالرضى والإحساس بالقيمة والمسؤولية المرتبطين بدورهما بحسن المعاملة والطاعة والنزاهة والنقد الذاتي والتواضع وقبول الآخر وسعة الأفق..لذا تصور هذه النماذج (الشخصيات الساردة) في معظمها شخصيات مثقّفة وذات مستوى فكري مُعتبَر مثلما يتضح من أفكارها ومواقفها من الواقع وتحليلاتها ورؤاها له.. وهي بحكم وضعها هذا الذي يتيح لها قدرا من الوعي والانتباه لأمور قد لا يتيسّر لغيرها، أمثلة للسواد الأعظم من الجماهير (العربية) المُحبَطَة اليائسة في ظلّ واقع صعب، خاصّ وعامّ، داخليا وخارجيا..سيما شريحة من هم في العقد الرابع وبداية العقد الخامس من أعمارهم التي بدأت بعد مُنتصف القرن العشرين، الفترة عاش فيها العالم العربي تحولات مهمة، ومحطات شكّلت كلُّها نقاطا فارقة بين عهدين: بداية انفراج في الوضع العام مع زخمٍ الآمال والطموحات في اكتمال التحرّر والوحدة والكرامة بين الأمم والشعوب، ثم معاودة الانحطاط والتراجع في كلّ المجالات والخيبات الكثيرة.. لذا ربما تكون هذه الشريحة هي الأكثر إحساسا بالضيق واليأس والحسرة في ظل مسار عولمي رهيب تقوده قوى عظمى لا ترى خلاصا للعالم إلاّ وفق نظرة ضيقة لا تقيم للآخر اعتبارا ما لم يذعن.. وتكتمل الصورة بالعلاقة المتوتّرة مع الأجيال الشابة التي انقسمت في الموقف والرأي: شرائح كثيرة منها ترى نفسها غير ملزمة بمنظومة من المبادئ والقيم تعجز في الراهن على إشباع الرغبات والماديات الكثيرة التي ينعمُ بها نظراؤها في الشمال.. وأخرى ترفضُ جزءا من القيم نفسها وترغب في استبدالها بأخرى تعتقد أنها الأصلح للمواجهة.. فتكون أولى خطوات التنصّل من الصنفين ازدراءُ هذا الجيل الذي ما عاد يتماشى والعصر.. انقسام هو صورة للانقسام العام جملة وتفصيلا، من هنا هذا التناقض الحادُ لحالات ووضعيات هذه النماذج الذي هو بدوره صورة للتناقض والوضع العام. التناقض عادة هو التجاذب بين طرفي أمر ما يحاول كلٌّ منهما فرض نفسه، لذا فالرغبة في الصمت إقرارٌ بالهزيمة وتسليم بأن الصمت هو الأجدى في مواجهة الواقع والقبول به، ومن ثمّ لا يبقى سوى محاولة التكيف معه والتعوّد عليه. أما الرغبة في الصراخ فهي بقايا مقاومة يُلفتُ بها المعنيُّ النظرَ إليه في إعلان مفاده: أنا هنا لم أنته بعد.

تحملُ هذا المضامينَ نظرةٌ يغلّب عليها سرديا: استعراضُ دواخل الشخصيات وعرضُ أفكارها وهواجسها في تعدّد للضمائر والأصوات السردّية مع مقاطع حوارية هنا وهناك. عرض رؤى الشخصية وأفكارها ومشاعرها وأحاسيسها يطبعه استرسالٌ وبساطة وحيادية أيضا، تبتعدُ عن تعالُم الراوي الخارجي الذي يعلم كلّ شيء ويتحكّم في كلّ شيء، كما تحدّ من فوقيته وأبويّته (على شخصياته وعلى القارئ معا) ذات النبرة الأستاذية الوعظية المتعالية والتحاليل السياسية التوجيهية لما يجب أن يكون وكيف ينبغي أن يكون.. وهنا سرُّ المرارة والتهكّم والإحباط واليأس وغيرها من الصفات والظواهر المشار اليها..

لغةُ المجموعة جميلةٌ أنيقةٌ. فيها كثير من الانزياح والرمزية. تجدُّ أحيانا وتهزل أخرى وتسخر حيثما يكون ذلك ضروريا.. لذلك كثيرا ما يصدمُك الأسلوبُ هنا بعبارات واستعمالات خارجة عن المألوف، في إيراد لمقول سردي، أو في بعض الشروح التي تنقاد إليها الشخصيةُ الساردةُ للتعليق على تصرّف أو تحليل إحساس أو توضيح رؤية، أو لتبرير حركة.. لذلك بقدر ما يُبدي هذا الأسلوب من السخرية والتهكّم في تصوير بعض جوانب الواقع بقدر ما يعكسُ من الجدية والمرارة.

الرغبة في الصراخ الرغبة في الصمت، رغبتان متناقضتان. تناقض يأخذ بخناق السواد الأعظم من الأفراد في عالمنا العربي، خصوصا في أوساط النُخَب المثقفة. حيرة وضياع ويأس، يشمل كلَّ الشرائح العُمرية.. وضع هو بلا جدال نتيجة منطقية لتواطؤات داخلية وخارجية تضافرت على نسجه وفرضه..لذا يغدو الأملُ في الخلاص معقودا بالإصلاح والتغيير. لكنّ الإصلاح والتغيير مؤجّلان إلى مستقبل لا أحد يدري متى سيأتي... وبالتالي لا يبقى من شيء يتّعلّلُ به سوى الانتظار، وهو موضوع القصة الأخيرة من المجموعة التي هي بالمناسبة مهداة إلى روح جبران خليل جبران. رغبة في الصمت تقابلها أخرى في البكاء. لكن الصراخ أجدى لأن أثره عام ويصل كلّ المحيطين بالمصوّت أما الصمتُ فلا يتجاوز أثرُه صاحبَه على رأي الجاحظ.

تجدر الإشارةُ ختاما إلى أن مجموعة «يرغب في الصراخ يرغب في الصمت» هي أولى أعمال فرحات جلاب المنشورة، وقد صدرت عن منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين في الجزائر أواخر سنة 2004، مع أن تاريخ الايداع المسجّل ضمن البيانات التعريفية الخاصة بالكتاب هو سنة 2003. المجموعة من القطع الصغير الحجم الصغير، تضمّ اثنتي عشرة قصة توزّعتها 137 صفحة. هامش ضروري بمثابة الخاتمة: الكاتب فرحات جلاب، صحافي ثقافي بالتلفزيون الجزائري، رئيس فرع الجزائر العاصمة لاتحاد الكتاب الجزائريين..تجاوز الأربعين من عمره منذ فترة قصيرة.

* كاتب من الجزائر

لأغمرك بالنعناع والياقوت

ياسين رفاعية*

أيها الجندي

■ دعني اغمرك بالنعناع والياقوت، واكلل رأسك بأكاليل الغار، فلا يليق بك الا النصر عزة الوطن وكبرياء الاطفال.
ها أنت كتلة من نار في وجه الاعداء. ها انت في السفح والجبل مشدود الساعدين على بندقيتك تصليها نارا حامية لكل معتد أثيم. ما أرهف قوسك المشدودة وحربتك التي تعرف هدفها.
لأكثر من سبب، بل من اسباب كثيرة ترفع راية الكرامة والصمود امام المتخاذلين «انظمة وافرادا»، امام الصامتين صمت العار والخذلان.
ايها الجندي
انت جنوب الوطن العربي كله الذي اخرجنا من ذل الهوان واعاد لنا بصيص أمل ان نحرر القدس والاقصى والجولان من تدنيس الصهاينة.
أتابع أخبارك في الصبح والمساء. ولأول مرة امشي مزهوا بأنني عربي وأنني من جذور خالد بن الوليد وصلاح الدين.
ها نحن ننهض في كل شبر من ارض الوطن نتباهى بك ايها الجنوبي الأسمر الملوح بالشمس. دعنا نقبل يديك المشدوتين على مدفعك اللاهب، على بندقيتك السريعة الطلقات، فلم يعد لنا من أمل سواك. كلهم متخاذلون لا يريدون شيئا الا حفظ رؤوسهم على حساب الاف الشهداء.
مبارك انت ايها الجنوبي حيثما تقف مدافعا ومهاجما ومشتبكا مع العدو بكل انواع الاسلحة. معك نحن في اي مكان. معك في البر والبحر في الغربة والوطن.. لقد اعدت لنا توازن نفوسنا، خلصتنا فجأة من انشطار الشخصية وهذيان المرضى، اصبحنا، بك، اصحاء حقا، وبك شفينا من امراضنا الكثيرة وأولها وآخرها مرض الخوف. لنطوح بهم، كما يطوح الطفل بطائرته الورقية.
لنهزمهم شر هزيمة، ونقتلعهم من الارض كما نقتلع الشجرة الفاسدة.
اخفق في الريح يا سيدي الجنوبي
انك تبللنا بالنشوة الشجاعة ومسك الابطال
لقد جف ريقنا من ظمأ العطش الى النصر المجهول
ها انت تملأ افواهنا بالماء المقدس وعسل المجابهة
نرى المشهد جيدا كبياض الروح نشيدا يتألق بأهازيج الانتصار
نحن الظل وانت القامة المألى بنور الشمس
نحن المختبئون وانت، بصدرك، ترد كيد الاعداء.

***

بعد الآن
لن نحزم حقائبنا ونهرب الى اصقاع الارض
بعد الآن
سنتشبث بكل حجر من احجار الوطن، بكل باب بيت، بكل شجرة مثمرة.
لن نحمل مفاتيح بيوتنا ونهرب. لن تتكرر التجربة المهزلة.. الوطن لنا، ولهم ان يرحلوا من حيث جاؤوا.
ايها الجنوبي
كل نقطة دم تهطل منك ينبت مكانها شجرة ياسمين او شجرة بنفسج. دمك الطاهر النقي يتألق تحت كل كوكب.
تحت قميصك المبرقع ينبض قلب من فولاذ
لا ترتعش يدك عند الطلقة الألف ولا المليون
أضئ ليلنا بوهج قنابلك.
أشعل نهارنا بنار صواريخك التي تعرف هدفها
لتطل الحرب سنوات وسنوات.. فكل يوم نقترب من القدس ومن الاقصى لنصلي فيه.
نحن الملايين معك ايها الجنوبي. فلا تأبه للانظمة المتخاذلة والزعماء الذين طأطأوا رؤوسهم الى الارض.
وكلما طال امد الحرب. تأكد لنا النصر.. فحزب الله هم الغالبون.

لندن

* كاتب من سورية

رواية «سوق النساء» للأديب والأكاديمي المغربي جمال بوطيب:

معترك بين اللذة والألم

إبراهيم الحجري*

■ نزل إلى سوق النشر الكاتب جمال بوطيب دفعة واحدة، بعد قليل من الصمت وكثير من التأمل، وخلال هذه الفترة ظل جمال بحسه المتقد قريبا من الساحة كمبدع وباحث يمسح منجزات الساحة الإبداعية قراءة وكشفا، متذمرا حيناً من كثرة ما أصبح ينغل، من روث الكلام وسوقيه، في المعتركات التي فضل الفرسان مغادرتها بعد أن تلوثت ولطخها بزق الكثير من الذباب، هكذا كان جمال يناقش عابثا تارة وجادا في كثير من الأحيان، غير أنه كان يبدو بين هذه الفترات يلمح لبعض البريق الذي يشع لحظيا في سماء الكتابة. وهكذا وبعد أربع مجموعات قصصية: الحكاية تأبى أن تكتمل 1993 ـ برتقالة للزواج برتقالة للطلاق 1996 ـ مقام الارتجاف 1999 ـ زخة... ويبتدئ الشتاء 2001، يصدر جمال بوطيب رواية «سوق النساء» ليحتفل، بطريقته الخاصة، بالدخول إلى عالم آخر من عوالم السرد التي لا تقبل الحدود، وبالموازاة أصدر عن نفس الدار ـ imbh safi ـ كتابا نقديا صغير الحجم كبير الطرح والأهمية والقضايا أسماه «الجسد السردي: وحدة الدال وتعدد المرجع».

تحكي «سوق النساء» عن قصة حب مستحيلة بطلها المحوري الراوي نفسه، الذي يسرد سيرة عشقه لفتاة تخلت عنه بعد أن ضيعته في متاهة حبها، ورحلت إلى أوروبا بحثا عن مجد من نوع خاص. وقد حولت هذه السيرة العنيفة لهزيم المشاعر لدى الراوي برنامجا بديلا كشف من خلاله القناع عن ذات من نوع آخر، تحولت خلالها الأنثى مجرد رقم، مجرد جسد يتعقبه الراوي لإشباع غرائزه. ويشكل هذا البرنامج التعويضي التلفيقي سعيا للذات صوب بلورة الاعتبار المهدور وترميم ما تبقى منها في أفق تخفيف وقع الصدمة وأثر المعاناة، وتكون هذه الانعطافة في الحكي فرصة هائلة للراوي كي يبوح ويسخر من الواقع الذي يعيش في كنفه، ويعري ما يختبئ في طياته وتنياته المتاهية من إكراهات وإخفاقات للإنساني والآدمي، هذا العنصر الذي يتوارى أمام القهر الذي يسلط عليه من قبل فواعل سوسيو ـ ثقافية مغربيا بامتياز، لكونها تختزن ثقافة المغاربة ومرجعياتهم وطريقة تعاملهم مع القضايا والأسئلة التي تتناسل قي بيئاتهم اليومية. وكعادته، في كتاباته السردية والشعرية والنقدية، ما يفتأ المؤلف يعابث قراءه ويستفزهم ويداعبهم، عبر مجموعة من المؤشرات التي تختزل المحكي، من حين لحين، وهي، في مجملها، تؤكد ما يلي:

ـ الإصرار على إشراك المتلقي في لعبة الحكي.

ـ الخروج عن المألوف في الكتابة النمطية.

ـ إعلان السخط من سيادة بعض القيم اللافنية التي يتشبث بها الجيل الجديد من الكتبة.

ـ تجريب أنماط أخرى من الموروث وتحيينها، وفتح آفاق التلاقح بين الأنواع والأجناس قديمها وحديثها.

وقد أتاح العمل الجديد، وفق استراتيجيات الحكي التي اختارها له المؤلف، آفاقا مفتوحة للتعايش والتفاعل بين عناصر حكائية وغير حكائية مثل الرسالة، المثل، الأغنية، اليومي، السيري، المقروء... وغير ذلك، بما يضمن لهذه الرواية، بالرغم من صغر حجمها، الكثير من الغنى والثراء والتعدد.

إضافة إلى المؤشرات العميقة التي تحيل على المعاش بكل تجلياته، وهو بذلك يمنحنا فرصة أخذ الانطباع العام بكون الكاتب يكتب متنه وهو موصول التفكير بالعوالم التي تحف بقضاياه، وبكونه لا يدرك فحسب بلاغة ملفوظه ونظامه الداخلي، بل أكثر من ذلك يدرك العلائق الرابطة بين هذا المنجز الإنساني وسماواته وأراضيه، وكأن التجربة برمتها منذورة لتجلية هذه العلائق وتذويبها. وتعتبر الرواية فضاء ثقافيا مغربيا بامتياز، لكونها تختزن ثقافة المغاربة ومرجعياتهم وطريقة تعاملهم مع القضايا والأسئلة التي تتناسل قي بيئاتهم اليومية. وكعادته، في كتاباته السردية والشعرية والنقدية، ما يفتأ المؤلف يعابث قراءه ويستفزهم ويداعبهم، عبر مجموعة من المؤشرات التي تختزل المحكي، من حين لحين، وهي، في مجملها، تؤكد ما يلي:

ـ الإصرار على إشراك المتلقي في لعبة الحكي.

ـ الخروج عن المألوف في الكتابة النمطية.

ـ إعلان السخط من سيادة بعض القيم اللافنية التي يتشبث بها الجيل الجديد من الكتبة.

ـ تجريب أنماط أخرى من الموروث وتحيينها، وفتح آفاق التلاقح بين الأنواع والأجناس قديمها وحديثها.

وقد أتاح العمل الجديد، وفق استراتيجيات الحكي التي اختارها له المؤلف، آفاقا مفتوحة للتعايش والتفاعل بين عناصر حكائية وغير حكائية مثل الرسالة، المثل، الأغنية، اليومي، السيري، المقروء... وغير ذلك، بما يضمن لهذه الرواية، بالرغم من صغر حجمها، الكثير من الغنى والثراء والتعدد.

ويأتي العنوان، كسيد العتبات، يحمل ما يحمل بين طياته من الإيحاءات والمؤشرات الدلالية التي تتواشج مع البنى الدلالية الداخلية للنص الروائي، وهو أيضا يحمل مقولة تناصية كبرى، تحيل على الموروث الشعبي المشترك، وهو القول المأثور لشيخ الزجالين المغاربة عبد الرحمن المجذوب، من خلال بيتين شعريين زجليين يقول فيهما:

سوق النساء سوق مطيار يا الداخل رد بالك
يوريو ليك من الربح قنطار ويديو ليك راس مالك

وهذا القول المرجعي يثبت فرضية خبث النساء وقوة ذكائهن وحدة مكرهن، ويحذر من مغبة الدخول إلى عوالمهن الشقية المليئة بالكيد والغدر، دون تأبط عدة الاحتراس من مخالب أشركتهن ومتاه شرهن الذي لا بد منه. غير أن الرواية لا توظف هذا المقول لتحيل به إلى هذا المعنى دوما، بل قد تستثمره، أيضا لأداء غايات أخرى عكسية، فالمرأة، في النص، كشخصية لها تعالقاتها السوسيو ـ ثقافية، تتمظهر غالبة ومغلوبة، قاتلة ومقتولة، ساحرة ومسحورة، فاعلة ومنفعلة، وكثيرا ما انقلب السحر على الساحر، وكم من مرة كانت هي الطلقة والضحية.

والمرجعية الثانية التي يحيل عليها العنوان، مرجعية مكانية «ص.ب:26» التي يرمز بها الكاتب لأفضية معينة، واقعية أو متخيلة تحتوي أغلب الأحداث أو بعضها. وتأرجح العنونة بين هذا المعنى أو ذاك، له ما له من إيحاءات التعدد التي تفضي إليها متاهة السرد نفسها.

في «سوق النساء» تتعالق الخطابات، وتسمى الأشياء بمسمياتها، وتبدو اللغة مرنة، تلقائية لا يرهق الرواة أنفسهم في ابتكارها، وإن كانت أحيانا لا تخلو من شعرية، غير أنها ليست لغة مقدسة، بل لغة مفتوحة الأمداء على الدارجي والفصحى والفضي، هي لغة خطابها المتعدد، تصر على أن تكبر وفق سيرورة الحكي، وعلى أن تكون طيعة في ألسنة رواتها وشخوصها المتعددين.

يمنح الكاتب الفعلي مفاتيح الحكي لرواته الذين يحكون، في الغالب، بضمير المتكلم، تمويها للقارئ، كي يتصور أن المؤلف الحقيقي هو من يحكي، وأن ما يُحكى هو أحداث واقعية عاشها الراوي الشخصية في أزمنة متقاربة أو متباعدة، وأن العمل، بالتالي، هو سيرة ذاتية تخلو من أي تخييل. هذه خدعة من الخدع التي يتأسس عليها المنجز، إضافة إلى خدعة الفصلين المتبقيين الذين نبه الكاتب إلى تأجيل إيرادهما إلى مناسبة لاحقة.

إن توالي هذه المقالب، في كتابة جمال بوطيب، يدل على أن قارئا بعينه، عليه أن يعيد النظر في مفاهيمه ومصطلحاته، وأن يتسلح بآفاق رحيبة، وأن يدع الكسل والخمول جانبا. وهي في نفس الوقت انتقاد للمكتوب من المنجزات الحاصلة والتراكمات الكمية التي تقدس المسارات والأنساق، ودعوة صريحة إلى إنشاء كتابة مغايرة منفلتة لا تروم الخط الوحيد في التفكير والإنجاز والرؤيا.

تجد في العالم الروائي هذا، وأنت تعبر المسافات النصية، ما يشبه الذات، وهي ترتوي من عطش الطريق. وتجد نفسك تتعثر بذواتك المشتتة عبر الورق، الآتية من الذاكرة المشتركة للآنا، فلا تلفي فكاكا من أن تتوحد، بقدر ما تستطيع، مع عناصر هذا العالم. بل لا تجد في نفسك أي حرج من أن تلج المتاه النصي بفرح طفولي. فالرواية، بالقدر نفسه الذي تبيح لك أن تعرف العالم والآخر والمحيط المتعدد، تتيح لك، بكل إيجابية، أن تتعرف على ذاتك، وأن تسائلها، بحياد، الأسئلة الموضوعية التي قد تكون سببا في نجاحك في اقتحام الكلي بشجاعة، ثم أن تقتنص، لشهواتك العطشى، بصيص ألم مشتهى أو فرح طفولي غير مقيم. النص، بتعبير آخر، دعوة إلى القراءة، وفي نفس الآن، دعوة إلى الكتابة بأفق جديد لا تسده المواجع، أفق مشرع لاقتراف الحياة النصية بلذاذة، على أقل تقدير، لأنه نص يعج بالمفارقات والبدايات التي لا نهاية لها، ولأنه كذلك يطفح بالسبل التي تؤدي إلى تلق فعال ومنتج، بالرغم من أنف القارئ وعصاباته.

* كاتب من المغرب

قص
الدم فيه وفيه

مبارك حسني*

■ كانت هناك شمس حارة وقوية. وضع الرجل الذي اسمه سعايد المنجل جانبا، أزال القصبات الثلاث التي تقي أصابع يسراه من الحديد الحاد. ثم تطلع إلى البعيد، حيث الدوار ومنزله في الوسط ببرجيه العتيقين مثل حارسين أسطوريين. ثم استرعى انتباهه ثوب أحمر منقط بالورود البيضاء، من النوع الرخيص. كانت لا محالة امرأة في الثوب الذي يعرفه جيدا بما أنه اشتراه قبل أسبوع في يوم أربعاء السوق. المرأة بالثوب الأحمر تمرق بسرعة نحو دكانة التبن العتيقة المظلمة. ثم وسع سعايد من نظراته المندهشة لما رأى رجلا يخطو في ذات الاتجاه.
انكمش ما بين حاجبيه، وعقد القلق جبهته، لكنه ما لبث أن طرد غيم الشك بعيدا. قال لا يمكن وقال مستحيل. وقال هي الشمس الحارة والتعب منذ الفجر جعل رؤيته تتضبب، فانحنى إلى النصف وأخذ المنجل وراح يحصد.
بسم الله على بركة الله ضرب بالمنجل في سنابل الشعير الصفراء المنتصبة، لكنه لم يسمع فرقعة الحديد على صلابة القصبات كما ألف كموسيقى مرافقة للخبط والقطع والتدوير للسنابل. لم يسمع وعوض ذلك تبدى له الدم يسيل من أصابعه ويضمخ السنابل والحقل وطرفا من حدائه البلاستيكي. فتألم وصرخ يعض على شفتيه وشتم وسب. قال «أيييييي» طويلة ممتدة وجارحة، وتردد صداها في الحقل فسمعته زوجته وصاحت:
ـ ما بك يا هذا؟ لماذا تصرخ؟
ثم ولولت وهي ترى الدم الساخن الفوار الذي يسيل من أصابعه المتدلية كخرق بالية.
عض على شفتيه وصك أسنانه وقال:
ـ اللعنة على هذه الشمس التي دوخت عيني.
ـ لا أفهم.. أجابت وهي ملتاعة للدم واللحم المندلقين...

* قاص من مصر

وثائق سرية المانية .. عن فلسطين والسعودية وكثير غيرهما

بيروت ـ من جورج جحا:

في الكتاب المترجم الضخم الذي حمل عنوانا هو «العالم العربي في وثائق سرية المانية 1937ـ 1941» معلومات كثيرة منها ما يثير الاهتمام في ما يقدمه من جديد وفي ما يوضحه من وجهات النظر الالمانية النازية في قضايا واوضاع. من الامور الكثيرة التي يتناولها الكتاب القاؤه ضوًا على موقف المانيا الرافض لانشاء دولة يهودية في فلسطين والعلاقات الالمانية السعودية وسعي المملكة العربية السعودية سرا للتخلص من هيمنة بريطانيا. ويلقي الكتاب ضوًا اخر على رفض ايطاليا حليفة المانيا الاعتراف كتابة باستقلال الدول العربية. وقد قام رزق الله بطرس بترجمة الكتاب الى اللغة العربية وراجعه وقدم له نجدة فتحي صفوة. صدر الكتاب عن «دار الوراق» في لندن وبيروت في 408 صفحات كبيرة القطع .صمم الغلاف جبران مصطفي وحمل صورة هي اصلا ملصق لريتشارد كلاين. تتولى توزيع الكتاب دار «الفرات للنشر والتوزيع « في بيروت. توزع الكتاب على ستة اقسام حملت وثائق من وزارة الخارجية الالمانية ابتداء من الفترة الواقعة بين يونيو حزيران 1937 وصولا الى ديسمبر كانون الاول 1941. في المقدمة كتب صفوة متحدثا عن عدم جواز الاستناد في الدرسات عن العالم العربي في تلك الحقبة الى وثائق من طرف واحد والطرف الغالب في هذا المجال هو الوثائق البريطانية. وتحدث عن الكتاب فقال ان مجموعة وثائقه التي اختارتها دار النشر «تتناول بصورة خاصة المراسلات التي دارت بين وزارة الخارجية الالمانية وسفاراتها أو مفوضياتها في العراق والمملكة العربية السعودية وغيرهما من اقطار المشرق العربي وتلقي اضواء جديدة ومهمة على العديد من القضايا التي تهم تلك الاقطار كما انها تلقي اضواء مفيدة جدا على تطورات قضية فلسطين وموقف المانيا منها ودورها فيها ..». وفيهاايضا وثائق عن حركة رشيد عالى الكيلاني في العراق وموقف المانيا منها. وفي ما ورد من تقارير وتحت عنوان هو « تقرير عن القضية الفلسطينية «ثم تحت عنوان فرعي هو» الموقف فيما يتعلق بمصالحنا» ورد انه «تم التعبير عن وجهة نظرنا حول القضية الفلسطينية... ونقلتها الى الحكومة البريطانية سفارتنا في لندن... لن يكون تشكيل دولة مستقلة تحت القيادة اليهودية الى حد ما امرا ترحب به المانيا بالرغم من انها كانت حتى الان تحاول تشجيع هجرة اليهود الى فلسطين باكبر عدد ممكن وحتى انها بذلت تضحيات لهذا الغرض..».

وبعد عرض مواقف وتفاصيل خلص التقرير الى القول «... يجب ان تاخذ المانيا الخطوات العملية التالية في الاعتبار..1» اتخاذ الاجراءات لمنع تشكيل دولة يهودية .2» حماية المستوطنين الالمان في فلسطين داخل البلاد نفسها او بالاستيطان الموقت في مناطق اخرى». اضاف ان الاجراءات الدبلوماسية التي يمكن ان تتخذها المانيا ضد الدولة اليهودية هي.. القيام باتصالات مع الحكومات الاوروبية الاخرى التي تعارض ايضا قيام دولة يهودية بهدف خلق جبهةعمل مشترك «او لاعطاء الدعم المباشر او غير المباشر للحركات الموجهة ضد الدولة اليهودية.ويمكن دراسة الدعم المباشر للعرب بالسلاح والمال اما في فلسطين نفسها او عن طريق دول عربية اخرى اولها العراق». وحذر التقرير الذي حمل تاريخ اب اغسطس 1937 من انه في حال تطبيق هذه الاجراءات ينبغي اخذ امرين بعين الاعتبار الاول هو « علاقاتنا مع انكلترا التي يجب الا توضع تحت اي ظرف من الظروف في حالة توتر غير ضرورية من جراء ذلك « والثاني هو «عدم مصداقية العرب سياسيا بصورة واضحة».

وفي مجال اخر وهو «تقرير مفصل عن السياسة الالمانية عن الجزيرة العربية والعراق «ملخص لمؤتمر جرى في «مكتب وزير الدولة يوم 9 ديسمبر كانون الاول 1940 وتحت عنوان فرعي هو «السياسة الالمانية في الجزيرة العربية» ورد ما يلي: 1 (في الواقع قبل وبعد نشوب الحرب وجدت المانيا في القومية العربية حليفا طبيعيا لها بينما تجدهاايطاليا مزعجة ..».

وقد «اعلمتنا روما ان الاعتراف الكتابي باستقلال البلدان العربية وحقها في تشكيل اتحاد كان مستحيلا بالنسبة لايطاليا فهي تحرص الا تتجاوز الحد المعقول لان العرب كانوا ضعافا ويفتقرون الى الخبرة. كانت جميع البيانات الصادرة حتى الان في الصحافة والاذاعة مجرد دعايات».

ونقرأ في الرقم 2 ما يلي « تحدد خط السياسة الالمانية بحيث يعطى ايطاليا من حيث المبدأ القيادة السياسية المطلقة في المنطقة العربية لذلك اصدرنا في يوم 18 اكتوبر تشرين الاول وفقا لرغبة ايطاليا بيانا شفهيا فقط مفاده... اننا نراقب باهتمام نضال العرب من اجل الاستقلال وسنستمر في تاييد جهودهم لنيل الحرية».

وفي سوريا تحدث التقرير عن «كراهية العرب للايطاليين فهم يفضلون حكم الانجليز الاجانب». وفي تقرير عن المحادثات مع الملك عبد العزيز ال سعود وموقف السعودية السياسي والعلاقة مع انجلترا من جهة وايطاليا والمانيا من جهة اخرى وذلك بتاريخ فبراير شباط 1939 قال كاتب التقرير انه اجرى عددا من المحادثات الطويلة في جدة «مع الملك ابن سعود ومستشاره الشيخ يوسف ياسين بخصوص الموقف الدولي للعربية السعودية وخصوصا علاقاتها مع انجلترة وايطاليا. كان موضوع المحادثات الرئيسي هو رغبة الملك في تعاون سياسي واقتصادي وثيق مع المانيا..».

اضاف يقول «اصبح من الواضح فورا ان الانطباع العام حول ابن سعود خصوصا في البل